التسخيري مرتدياً عباءة الحب والوحدة

الشيخ حسين أحمد شحادة*

في ساحة من أشرف ساحات الجهاد بالكلمة، برز اسم الشيخ محمد علي التسخيري تاركاً ذوب روحه في مطاف أن يتحول المعنى المقروء عنده إلى نص مكتوب بعيون الناقد المهموم في محو ما علق بتراثنا الإسلامي من إجحافات لا تمت بصلة إلى روح الإسلام، فاجتمعت تقلمه ملكة التحليل العلمي في ما يقرأ وبينما يكتب، حتى لقد كان ينفق من ساعات اليوم الواحد ما لا يقل عن خمس عشرة ساعة، يخلو فيها إلى مكتبته فلا يحز في نفسه إلا أن يرى اختلاف المسلمين مربوطاً في كثير من مواضع الاختلاف بنصوص لم تثبت صحتها كحديث الفرقة الناجية، وما يجري مجراه من أحاديث تبذر أشواك الفتنة والتجزئة بين جوانح الأمة الواحدة.

وكان واضحاً طوال عمر شيخنا التسخيري أن هم الوحدة الإسلامية كان همه الأكبر، مشغولاً به شغل العابد في قيامه وصيامه، فنزل من نفسي منزلة إكبار وإجلال. وقد شهدته من مطلع سبعينات القرن الماضي مترفعاً عن الصغائر، مزدرياً لما انغمست فيه بعض الأقلام تسيل بإثارة العداوات المذهبية الطائفية على سن القلم المتجاهر بسن الأحقاد. كذلك شهدت التسخيري – بمجهودات عقله وقلبه – مهموماً برد الاعتبار إلى قيمتين من قيم الإسلام العليا إحداهما قيمة الحب والإخاء، وثانيهما قيمة الأمة الوسطية الشاهدة. فلم تنشأ الحوائل النفسية بين المسلمين إلا من

* باحث في الفكر الديني، رئيس تحرير مجلة المعارج.

جفاف معنى الإخاء ومعنى الأمة في قاع توتر العصبيات التي كانت تفتك بروابط وحدة الإيمان ووحدة الانتماء... وما بين وحدة سُورت بمنيع عقيدتنا السمحاء وبين وحدة تطوف حولها من بعيد يستروح التسخيري مفهوماتها من لباب التوحيد عقيدة وهوية وثقافة تندمج فيها روح الأصالة بمقومات الرؤية العصرية لعمارة الوحدة المسكونة بأهلها علماً وأدباً وأخلاقاً بقرآن يُتلى بخشوع القلب آناء الليل وأطراف النهار...

فهل يمكن لمسلم أن يحيى القرآن ثم يس كت عن طغيان مفهوم المذهبية على مفهوم الأمة الواحدة!؟ وهل يمكن لقارئ يقرأ آيات الكتاب: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ثم يغض بصره عن عقد الإخاء في توحيد هذه الأمة!؟

وإذاً، ليست الوحدة الإسلامية في مجمل ما كتبه التسخيري عن فلسفتها مجرد وحدة سياسية تستحضر عوامل قوتها لمواجهة التحديات الوافدة على أمتنا من خارج حدودها الجغرافية؛ لأن جوهر الوحدة الإسلامية في صميم معناها متصل بمكنونات ومضمونات رسالة المسلم في الشهود على العالم بمعزل عن تفاصيل التحديات التي تحاصره من داخل أو خارج. وأهم ما نلفت النظر إليه لرؤية التسخيري لإشراق الوحدة وجمالها أن تقويمها في شعاع الرسالة مفتوح على شعاع خلق الإنسان في أحسن تقويم، فهي ميسرة لما خلق له الإنسان من احتمال معنى إنسانيته بأمانة استخلافه الرباني على الأرض.

ولعل التسخيري في ذلك قد أحسن ربط وحدتنا الإسلامية بفلسفة الإنسان والوجود، وهنا ترى الشبه ماثلاً بينه وبين الشهيدين المطهري وباقر الصدر، وهما يمسان شغاف الوحدة في ضوء السنن التاريخية وفلسفة التاريخ كذلك وضع التسخيري قضايا وحدتنا على درب طريقنا الحضاري الطويل مرتدياً عباءة الحب التي اتسعت عنده لكل تقريب إنساني يمد جسور التعارف والتواصل ببوصلة حوارات هذه الوحدة المثقلة في معنى بلاغة التطابق بين تسبيح الكون وتسبيح الإنسان المتوقد أبداً بتحطيم كل عبودية تصرفه عن توحيد الله بوصفه ناظم الانتساب لتجليات الوحدة في كل مجال...

وها هنا يجدر الإلفات إلى أن عنوان الوحدة الثقافية لأمة التوحيد، لا يقدم نفسه كبديل عن ثقافات الأمم والشعوب، وإنما كبديل عن كل نموذج عنصري مؤسس على كراهية الآخر وضم حقوقه واسترقاقه وتجويعه؛ أي عن كل نموذج يهدد عنصر الحب والتعارف في الوحدة الإنسانية المرتجاة في ما نشهده من ثقافة العنصرية الإسرائيلية في فلسطين وثقافة الاحتلال الأمريكي في العراق، ومع إيمان شيخنا المبارك بأهمية الثقافة ودورها

في تحريك العلاقات الدولية وتحصينها برباط السلم العالمي، فإن هذا الدور المستقبلي الواعد لن يتحقق في المدى المنظور، إلا عبر مراجعتنا النقدية لوعينا الجديد بالعالم والإنسان. وهذا ما يطرح ضرورة الاعتناء بالعلوم الإنسانية اعتناء لا يقفز فوق مشروع هويتنا في توظيفها لمواجهة استحقاقات الراهن والمستقبل، وذلك بمقاربة هذا التحدي في جبهتين.

إحداهما: التلاقح المتبادل بين تجارب الأمة الإسلامية لتحقيق الشروط الموضوعية لإنتاج معرفة معاصرة تحسم جدل العلاقة بين الدين والزمن.

وثانيهما: التفاعل مع الثقافات العالمية في إطار الوعي باستثنائية المرحلة التي تمر بها أمتنا في مدى سياسات الفوضى الأمريكية المستندة على تفجير بنذور التناقضات الدينية والقومية، وهو ما يدعونا إلى بلورة المقاومة مقاومة التمزق والفتن بثقافة الوحدة وأدب المحبة والحوار.